ورقة عمل مقدمة للقاء الخطاب الثقافي الخامس

موضوع اللقاء

**الثوابت الوطنية للخطاب الثقافي السعودي.**

عنوان الورقة

الثوابت الوطنية السعودية في ضوء المحددات الشرعية، والتاريخية

تقديم

د محمد بن إبراهيم السعيدي

أستاذ أصول الفقه المساعد بجامعة أم القرى

تاريخ ومكان اللقاء

الثلاثاء – الأربعاء 27– 28/محرم/ 1434هـ

11 – 12/ ديسمبر/ 2012م

الرياض – صالة الخزامى – مقابل جامعة الملك سعود من جهة الغرب.

**بسم الله الرحمن الرحيم**

 **الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد :**

 **مفهوم الثقافة :**

 **كثيرةٌ هي المصطلحات المعاصرة التي أصبحت جزءاً من لغة الناس اليومية بمختلِف طبقاتهم العلمية , ومع ذلك قلَّ من تجدُه يحمل لهذا المصطلح الذي يُعِبِّرُ به دلالة واضحة تُمَيِّزُ مدلوله عمَّا سواه , ومن أبرز الأمثلة على هذا النوع من الكلام مصطلح الثقافة, فهو وإن كان مستخدماً حتى في تعبيرات عوام الناس وأوساط المتعلمين والإعلاميين بل والعلماء والسياسيين والاستراتيجيين إلا أن قليلاً من هؤلاء من يستطيع أن يجيبك مباشرة ودون روية أو فكر فيما لو سألته : ماذا تعني بالثقافة ومن هو المثقف في نظرك .**

 **وبعيداً عن الدخول في مناقشةٍ لما قاله الباحثون في دلالة المصطلحات أتَّجِهُ مباشرة إلى ذكر رأيي في مفهوم الثقافة , فأقول:**

 **تُطلق الثقافةُ ويُرادُ بها أحدُ معنيين . لكلٍ منهما سياقه الخاص ودلالته المختلفة عن المعنى الآخر , فأما الأول :**

 **فالثقافة : درجةٌ من المعرفةِ لا يرتقي صاحبُها إلى مستوى العلماء وأصحاب التخصص الدقيق في مجالٍ من المجالات , لكنه يتمَيَّز عن عامة الناس ومحدودي المعرفة والمتوقفين عند حدود ما أعطاهم التعليم العام.**

 **فالمثقف لا يُصَنَّف من جُملة العلماء ولا أصحابِ التخصصِ الدقيق , ومع ذلك قد يكون العالمُ والمتخصص مثقفين باعتبار إلمامهما بمبادئ من المعارف فيما ليس في مجال تخصصهما , كعالم الدين الذي له معرفة بالجغرافيا والأدب وتنوع الناس ومذاهبهم وأديانهم وتواريخهم , فهو في مجاله الشرعي وما تعلق به يُعد عالما , لكنه في تلك المعارف التي يُدرك منها ما يرتفع به عن مستوى العوام والجهلة يُعدُّ مثقفا , وإن كان شرف العلم يرتفع به عن مستوى هذه التسمية حتى وإن طابقته في بعض معارفه.**

 **وكذلك الطبيب المرتقي في درجات علمه ومهارته حين تكون لديه إلمامات بمبادئ معارف أخر كالشريعة والتاريخ والجغرافيا وغيرها هو من هذه الزاوية مُثقفٌ ,وإن كان في مجال تخصصه يُعَدُّ عالماً .**

 **الإطلاق الثاني للثقافة , أنها : كل ما يُكَوِّن ذهنية مجتمعٍ أو أمة ما , من دين ولغة وتاريخ تؤثر بالطبع على إنتاج أخلاقها وآدابها وتصوراتها أو رؤاها للكون والحياة وكذلك العبادات و العادات والأعراف , , حتى يصل تأثيرها إلى لباسها وطرائق سكناها بل ربما تجاوز ذلك إلى أساليبها في المخاطبات والمكاتبات والحركات والسكنات .**

 **وهذا الإطلاق من خصائصه: أنه لا يُشتَقُ منه وصف المثقف , فلا يُعبر عن أحد من الناس أو جماعة منهم بأنه مُثقف أو أنهم مثقفون ويراد هذا الإطلاق , لأنه وصف عام لمكونات ذهنية المجتمع أو الأمة , فيقال عن خلقٍ ما أو عادة من العادات , أو شكل اجتماعي مُعين : إن هذا من ثقافة هذه الأمة أو من ثقافة هذا المجتمع , على اعتبار أن هذا الخُلُق أو تلك العادة أو ذلك الشكل الاجتماعي هو نتاج مكونات ذهنية هذا المجتمع أو الأمة , وهي الدين والتاريخ واللغة والتصورات الخاصة للكون والحياة .**

 **مكونات الثقافة :**

 **مما سبق يتضح أن مرادنا في هذه الورقة هو المعنى الآخر للثقافة أي كونُها عنوانا لما يُكون ذهنية المجتمع أو الأمة وما ينتج عن هذا التكوين الذهني .**

 **ومما تقدم أيضا يُمكن أن نقول إن تكوين ثقافة أمة من الأمم يمر بمرحلتين :**

 **الأولى : تَكَوُّن الثقافة , وينشأ من تفاعل الإنسان مع العناصر الأولى المكونة للثقافة وهي الدين والبيئة واللغة والتاريخ ومقدرات الأرض , وقد أسميتُ هذه الأمور في كتابي الممانعة المجتمعية(1) بأصول القيم , وذلك أن تفاعل الإنسان معها هو الذي يُكَوِّنُ قيمَ الأمة .**

 **ولا يُمكن أن يُتَصوّر أن الإنسان عاش يوماً ما من الدهر دون ثقافة بهذا المعنى , ولهذا فإننا نعني بتكون الثقافة أمرين : أحدهما : النشأة الأولى للثقافة الإنسانية مع أول وجود للإنسان في الأرض , وقد حكى القرآن الكريم بعض ملامح تَكَوُّنِ تلك الثقافة وذلك في عدد من المواضع في القرآن الكريم , منها : قوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَالأعراف: ١٨٩ – ١٩٠

**فالآيتان تشيران إلى إحدى تجارب أبوينا في هذه الأرض والتي كونت الثقافة الأولى في فهم معنى الحمل والإنجاب والشفقة على الولد والابتلاء بكيد العدو , وقد أورد المفسرون كثيراً من الروايات الموقوفة والتي تختلف في درجة أسانيدها عن قصة حمل حواء , وكُلُّها في الأصح مما يجوز التحديث به عن بني إسرائل .**

 **وأيضا في حكايته سبحانه نبأ ابني آدم :** **( وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ) المائدة:** ٢٧ **وما بعدها من الآيات التي تظهر تعرف الإنسان على بعض الخصال السيئة في نفسيته والتجربة الأولى للإنسان في التعامل مع الموت.**

 **الأمر الآخر مما نعنيه بتكون الثقافة : نشوء ثقافة جديدة نتيجة نتيجة تغيُّر في العناصر المكونة لثقافة الإنسان الدين والبيئة واللغة والتاريخ ومقدرات الأرض وذلك نتيجة اعتناق المجمةعات الإنسانية ديناً جديداً أو هجرتها إلى بيئة جديدة تؤدي إلى تفاعل غير مسبوق مع البيئة ومقدرات الأرض .**

 **وتجارب البشرية في تكوين الثقافات كثيرة جداً تجدها أوضح ما تكون في موجات الهجرات الكبيرة كهجرة السومريين من وسط أسيا إلى سواد العراق وهجرة الكلدانيين إلى من الجزيرة العربية إلى العراق وهجرة الفينيقيين من الجزيرة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط .**

**ثم الجهجرة العربية الكبرى والتي انطلقت بباعث من دين الإسلام لتغير ثقافة العالم بأسره .**

 **المرحلة الثانية : إنتاج الثقافة , وذلك أن تفاعل الإنسان مع الأصول المتقدمة ينشأ عنه أخلاق وآداب ورؤى خاصة للكون والحياة وكذلك عبادات وعادات وأعراف .**

**وهذه العناصر هي ما أسميتها قِيَم الأُمَّة وذلك في كتابي المتقدم الذكر الممانعة المجتمعية , فثقافة الأمة تكاد تكون مرادفاً حقاً لقيمها , لولا أن الثقافة في الاستعمال العام أكثر دخولاً في جزئيات الحياة من القِيَم , حيث تُطلَقُ الثقافة كثيراً على أجزاء وتفاصيل دقيقة في الحياة لا يُمكن أن توصف بكونها قِيماً , وذلك كالمأكولات والمشروبات وأنواع اللباس وألعاب الشعوب التي تمارسها في أفراحها , وتقاليدها في أحزانها , وغير ذلك من الجزئيات , التي يُشار إليها كثيراً بأنها من ثقافة المجتمع , وتبلغ في دِقَتِها أنها رُبما أُطْلِقت على ما يختص به كُل شعب من طُرق في التعبير الجسدي كحركات الجسم والوجه واليدين التي تتميز بها بعض الشعوب للتعبير عن بعض المعاني , كُل ذلك يُطلق عليه وصف الثقافة, مع أننا عند التأمل نجد أنها أقل بكثير من أن تُوصف بكونها قِيَمَاً , ولا أجد اسماً يُمكِنُهُ أن يجمعها إلا أنها السِّمات المميزة لتفاصيل حياة الشعوب اليومية .**

 **ومن هذا يتلخص أن الثقافة بإطلاقها الثاني تتكون من ثلاث فئات من العناصر المكونة لها :**

 **الفئة الأولى : أصول القيم .**

 **الفئة الثانية : قيم الأمة.**

 **الفئة الثالثة : السِّمات المُمَيِّزَة لتفاصيل حياة الشعوب اليومية .**

 **الصواب والخلل في تَكَوُّن الثقافات:**

 **كما أن عناصر قيم الأمة هي :الأخلاق والآداب والتصورات أو الرؤى للكون والحياة وكذلك العبادات و العادات والأعراف , فإن الأصابع التي تنسج هذه العناصر وتقدمها في صورتها النهائية للعالم هي دين الأمة والبيئة التي تعيش فيها ومقدرات أرضها وتاريخها ولغتها , وهي مكونات القيم أو مادتها الخام , والتفاعل المستمر بين البشر وبين هذه المُكَوِّنَات يترتب عليه استمرارٌ في إنتاج القيم الاجتماعية للأمة بشكل متَّسِق وغيرِ متناقض .**

 **هذا هو الصواب في تكوين تقافة الأمة, أي أمة.**

 **أما الخطأ فيأتي حين نلحظ أن شيئاً من قِيم الأمة نشأ بعيداً عن هذه الأصول أي نشأ من تفاعل مع دين آخر أوتاريخ آخر أوبيئة أخرى فإن هذا الخُلُق أو هذه العادة أو هذه الرؤية ستظل ناتئةً مناقضةً لسياقِ المجتمع بأسره بما يحمله من ثقل ثقافي كبير .**

 **ومقدارُ معاناةِ هذا القِيمة الوافدة من رفضٍ اجتماعي يمكن أن يكون مقياساً لمدى تفاعل المجتمع مع الأصول المكونة لقِيَمِهِ الاجتماعية والتي تَقَدِّم سردُها قبل قليل .**

 **وحين نجد أن المجتمع قد استطاع هضم عادة أو خلق تكوَّنا خارج محيطه وغَفَل عن مناقضتها لسياق هيئته الاجتماعية العامة فهذا يعني أن هناك نقطة ضعف في تفاعل المجتمع مع دينه أو تاريخه أو بيئته وسائر الأصول المكونة لقِيمه , ومن نقطة الضعف تلك يمكن أن تَفِد إلى المجتمع أشكالٌ مختلفة من القيم الدخيلة سوف تؤدي كثرتها إلى كثرة التناقضات في هيئة المجتمع ,الأمر الذي سينفرج حتماً عن صورة لهذا المجتمع ضعيفة الصلة بالأصول المُكَوِّنَةِ لِقِيَمِه , أي: أنها ستُنتِجُ لنا مجتمعاً غير منتمٍ لأصله , وهذا هو الشرط الأول كي تحظى الأمة بقيم رائدة.**

 **وقد يتفاعل المجتمع مع بعض أصول قِيَمِه دون بعض, فيتفاعل مع التاريخ أو البيئة أو المقدرات بمعزل عن الدين , وهذا هو سر نشوء أَخلاق أو عادات أو تصورات ورؤى غير حميدة بالرغم من كونها وُلدت ونشأت في أحضان هذا المجتمع.**

 **ينتج عن هذا أن نعلم أن الشرط الثاني من شروط وجود قِيَمٍ اجتماعية رائدة أن يكون تفاعل الإنسان لإنتاج سلوك اجتماعي أو عادةٍ أو عرفٍ أو رؤيةٍ خاصةٍ أو عامةٍ مستغرقاً لكامل أصول القيم الاجتماعية لا مع البعض دون الآخر وإلا فإننا سوف نَبنِي بإغفال بعض أصول قيمنا هيئة اجتماعية محطمة.**

 **معيار الثبات والتغير في عناصر الثقافات :**

 **مما تقدم من كون الثقافة بمعناها الاجتماعي أو لنقل بدلالتها الحضارية تنقسم إلى ثلاثِ فئات من العناصر المُكونة لها , نُدرِك أن جميع هذه العناصر لا يُمكن أن تكون ثابتة , كما أنه من الخطر أن تكون كُلُّها متغيرة , فما هو الثابت , وما هو المتغير في الثقافة؟**

 **أو لِنَقُل : ما هي العناصر التي ينبغي أن تكون ثابتةً وما هي العناصر التي ينبغي أن تتغير , أو لا بأس في أن تتغير ؟**

 **الجواب عن هذا لا يُمكن أن يكون عاماً في جميع الثقافات الإنسانية , فكل أمة لها ثقافتها التي تختلف في عناصر تكوينها عن الأخرى وبالتالي تختلف أيضا فيما يجب أن يكون بالنسبة لها ثابتاً أو ما يكون متغيراً .**

 **والضابط الذي أتصوره لتحديد ماهيةِ ما يُمكن أن يطلق عليه ثابتاً وماهيةِ ما يُمكن أن يُطلق عليه مُتغيراً هو الرسالة الإنسانية التي تُريد ثقافةٌ ما تقديمها للكون .**

 **فكل ثقافة مُكتملة العناصر تحمل رسالةً ما تريد تقديمها للكون , وتختلف هذه الرسالة من ثقافة إلى أخرى من حيث حجمها ومدى سموها وقابليتها للقبول بين أمم الأرض , ونوع هذه الرسالة وقدرة الشعوب على حملها وقدرتها الذاتية على جلب التفاعل معها هو ما يحدد عمر هذه الثقافة على وجه الأرض .**

 **ويمكننا أن نقول باختصار : إن أعمار الثقافات على وجه الأرض مرتهَنٌ برسالاتها .**

 **من أجل ذلك نجد أن تعرُّفَنَا للثابت والمتغير من خلال جعلنا رسالَة الثقافة معياراً لذلك أمر منطقي جداً , كما أنه دقيق في إمكانية استخلاص الثوابت والمتغيرات من خلاله .**

 **ويُمكن أن نصوغ ضابط الثابت والمتغير في الثقافة بالعبارة التالية :**

 ***فكل ما يتعلق بهذه الرسالة الكونية مما يؤثر تغيره على هذه الرسالة سلباً فهو من الثوابت .***

 ***وكل ما يؤثر تغيره على هذه الرسالة إيجاباً , أو ماليس لتغيره أثر أصلا في الرسالة الكونية لهذه الثقافة أو ما كان أثره فيها ضعيفاً , فهو من المتغير* .**

 **أضرب لذلك مثالاً:**

 **وأبدأ بالثقافة اليهودية , فهي ثقافة ليس لها رسالة إنسانية تريد بثها في العالم سوى سيادة الشعب اليهودي على العالم من أجل تحقيق حلمهم في إحياء مملكة داود , لهذا نجد المُتغير في الثقافة اليهودية غزير جداً , فهو يصل إلى كل شئ سوى ما يتعلق بمحافظة اليهودي على انتمائه النسبي للطائفة .**

 **فقد ظل الانكفاء على الذات والعناية بالمال هو وسيلة اليهود الوحيدة لتحقيق هذا المطلب , ثُم تغير الأمر وأصبح بمقدورهم الخروج من هذا الانكفاء الذاتي , ومع ذلك لم يبالوا سوى قليلٌ منهم بخسارة كل شئ سوى استقلاليتهم العرقية وبعض تعاليم دينهم التي يُساعد الحفاظ عليها على ترسيخ هذه الاستقلالية (2).**

 **بل حتى إنكار الدين والإلحاد ليس له غالباً كبير أثر عندهم مادام هذا المنكر للدين يحتفظ بانتمائه اليهودي عرقياً , ولعل كثرة الملاحدة ومنكري الأديان والمستهترين بالقيم من فلاسفة اليهود في القرنين الأخيرين يُفسرها لنا هذا الأمر , وهو غزارة المتغير في الثقافة اليهودية بسبب محدودية الرسالة الإنسانية التي يريد اليهود تقديمها للكون .**

 **فكارل ماركس مثلاً هو من كبار المنكرين للأديان والقيم في التاريخ القريب , ومع ذلك هو صاحب الكتاب المشهور , المسألة اليهودية , وهو كتاب صغير الحجم يؤكد فيه كارل ماركس على ما قدمناه من ضآلة الرسالة التي يريد اليهود تقديمها للعالم ويعبر عن ذلك بأنهم يرون الأرض عبارة عن بورصة (3)**

 **ويبرز هذا جلياً في الكيان الصهيوني فمع أنه نشأ على أساس ديني إلا أن العلمانية هي سيدة الموقف في داخله , وحتى المتشددون اليهود لا يعنيهم حجم التغير الثقافي في المجتمع اليهودي مادامت رسالتهم في طريقها الصحيح وهي إقامة دولة إسرائيل (4).**

 **يُمكنني الاستطراد في بيان الأمثلة من مختلف الثقافات كالبوذية الكنفوشية والبوذية الطاوية والبراهمية ومختلف الوثنيات والمسيحية بأشكالها المتعددة والتأكيد من خلالها على أن معيار الثبات والتغير هو حجم الرسالة التي تقدمها هذه الثقافة للكون .**

 **لا أخفي أن تلك الثقافات في أصولها قد تكون تأبى التغيير , وهذا أمر طبيعي في أدبيات كل ثقافة , وهو أنها تَدَّعي الثبات وتؤكد على ضرورته في كل جزئياتها لكن المعرفة الدقيقة بحجم الثابت والمتغير في تلك الثقافات يأتي من معرفة موقفها الدقيق في أزمان الهزات الحضارية القوية , كما هو الشأن في عصرنا الحاضر .**

 **أنا شخصياً أعتقد أن فوكوياما يؤمن بهذه النظرية في معيار الثبات والتغير في الثقافات , وذلك من خلال سياق كتابه نهاية التاريخ , والذي رأى فيه أن الأصولية هي أعظم معوقات نشر القيم الأمريكية في العالم الإسلامي .(5)**

 **وبعد أن فرغنا من الحديث عن مدلول الثقافة , ننتقل معاً للحديث عن مدلول الوطنية:**

**معنى الوطنية وتاريخ هذا المصطلح:**

 **الوطن في اللغة  : تتوافق كتب اللغة في تعريف الوطن ولا تكاد تخرج عباراتهم في ذلك عمََا لخَصه صاحب كتاب الكليات ج1/ص940 حين قال : (الوطن هو منزل الإقامة,والوطن الأصلي: مولد الإنسان أو البلدة التي تأهل فيها ووطن الإقامة هو البلدة أو القرية التي ليس للمسافر فيها أهل ونوى أن يقيم فيه خمسة عشر
يوماً فصاعداً ووطن السكنى هو المكان الذي ينوي المسافر أن يقيم فيه أقل من خمسة عشر يوماً. ) ويلحظ أن هذه الكلمة رغم كونها صحيحة النسبة إلى اللغة العربية وأهلها عريقة النسب من حيث أصولها الاشتقاقية إلا أن استخدامها في المعنى اللغوي الذي أشار إليه أهل اللغة كان قليلا فلا تكاد تراها في الشعر الجاهلي  أو شعر صدر الإسلام إلا قليلا,كقول رؤبة بن العجاج:**

 **أوطنْت وطْنا لم يكن من وطني                         لو لم تكن عاملها لم أسكن.**

 **ولعل قلة استخدامها عند العرب بهذا المعنى هو السر في التعبير في القرآن عن الوطن بالديار والبيت كما في قوله تعالى : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ }البقرة84 وقوله تعالى :{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ }الأنفال5 .ذكر أبو حيان:أن المراد ببيته:المدينة,البحر,4/458.
    أما الموطن فقد جاء في القرآن مجموعا على مواطن في قوله تعالى : {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ }التوبة25 والمراد بها مقامات الحرب ومواقفها , مأخوذٌ من توطين النفس أي تهيئتها على مثل هذه المواقف كما أفاد أبو حيان في البحر المحيط ,5/ 24.**

 **وفي عصرنا الحاضر : لم يخرج معنى الوطن عن دلالته في أصل اللغة لكنه أصبح أوسع دلالة في عرف الناس , وإن كان علماء اللغة في العصر الحاضر يأبون الاعتراف بهذا المدلول الواسع فنجد واضعي المعجم الوسيط يستمرون في نقل كلام الأوائل في تفسير هذه الكلمة , قالوا : (  الوطن  مكان إقامة الإنسان و مقره وإليه انتماؤه ولد به أو لم يولد )
أما المُتَواضع عليه في عصرنا الحاضر في معنى الوطن فقد أجمله  الشيخ محمد عبده بقوله: ( المكان الذي للمرء فيه حقوق وواجبات سياسية ) وذكر الشيخ : أن هذا حده عند الرومان , تاريخ الأستاذ الإمام , 2/194
    ويمكن تعريفه أيضا : بأنه : المكان الذي ينتمي إليه الإنسان في حدوده السياسية , وإن تعددت أقاليمه واختلفت انتماءات أهله العرقية والدينية والمذهبية.**

**فهذا التعريف لا يلغي التعريف اللغوي,وهو أوسع منه حيث يجعل كل ما تضمه الحدود السياسية من الأراضي وطنا للإنسان وليس الوطن مقصورا على مكان الولادة أو النشأة أو الإقامة.**

 **هذا بالنسبة للوطن أما الوطنية : فقد انتقلت من دلالتها على  النسبة إلى الوطن أو مؤنث الوطني إلى الدلالة على معنيين متغايرين:**

 **الأول:اتجاه سياسي,والآخر:قيمة خلقية,وفي تقديري:أن الخلط بين هاتين الدلالتين وعدم تمييز إحداهما عن الأخرى أدى إلى الخلط أيضا في الحكم عليهما من زاوية دينية.    فالاتجاه السياسي : نشأ في أوربا مصاحبا للاتجاه القومي هناك وكانت الدعوة في هذا التوجه إلى الثورة على الإمبراطوريات الأوربية التي يجتمع في ظلها عدد من الأقاليم التي لم يك بينها من جامع  سوى في انتمائها إلى الدين المسيحي , وبالتالي كانت تلك ثورة على الرابطة الدينية في أوربا.**

 **وانتقلت هذه الفكرة الاستقلالية من أوربا إلى العالم الإسلامي ولا سيما تركيا حيث عاصمة الخلافة , ومصر التي كانت محط أنظار المثقفين العرب ومنها رفاعة الطهطاوي الذي لعله أول من نقل كلمة الوطن بمفهومها الغربي إلى اللغة العربية  وكانت السيادة  فيها للعثمانيين ومحمد علي باشا وأبنائه ثم خضعت  لحكم ثلاثي غريب , حين تقاسمت الأدوار فيها كل من بريطانيا وأسرة محمد علي والدولة العثمانية.**

 **أما في تركيا فكان حزب تركيا الفتاة يحمل على الجامعة الإسلامية التي كان ينادي بها السلطان عبد الحميد ويسعى إلى رابطة طورانية تعزل الشعب التركي عن الشعوب الإسلامية التي لا يقترب منها في العنصر, وتتقرب من الشعوب التي تقاربها في الأصول العرقية وإن كانت تُباينها من جهة الديانة كالعرق الجرماني.**

 **يقول عبد العزيز جاويش وهو من أعلام الحركة الوطنية في مصر \_1293-1347\_ في مقال له عن أصل الفكرة الوطنية ( إن الشعور بالوطنية اصطلاح أفرنكي –أي : إفرنجي – انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوي العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التي اهتدى إليها الغرب).**

**وكان من دعاة الوطنية في مصر من هم شديدوا العداء للرابطة الدينية التي تذكرهم دائما بالاستبداد التركي فقدموا رابطة الوطن على رباط الدين ودعوا إلى مصر مستقلة سياسيا وفكريا عن أي رابطة أخرى بل إن منهم من فضل الاحتلال البريطاني على الرابطة الإسلامية وصرح بعداوة الاتجاه الإسلامي بل تجاوز إلى ربط مصر بتاريخها الفرعوني وعزلها عن التاريخ الإسلامي  ومنهم من غازل الاتجاه الإسلامي والرابطة الإسلامية وحاول تصوير الأمر على أنه لا تناقض بين الاتجاه الوطني السياسي وبين الجامعة الإسلامية  وكانت تمثلهم صحف المقطم ومجلة المقتطف والجريدة .والتجارة , ومن الأحزاب الحزب الوطني ومصر الفتاة وحزب الأمة.**

**وهذا النوع من الوطنية لا يقره الإسلام لعدة اعتبارات
   1- كونها فكرة انفصال سياسي  عن وحدة الدولة الإسلامية , والإسلام دين اجتماع وليس دين تفرق , ويَعُد الإسلام الاجتماع مكسبا ولذلك فهو ينبذ أي فكرة انفصالية ,قال تعالى : {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }آل عمران103 كما جاء الأمر بالالتزام بجماعة المسلمين في أحاديث كثيرة منها :قول الرسول صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم ج3/ص1480
)من أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ على رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أو يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ(.**

 **2- ىكونها دعوة للتكتل على أساس الإقليم يجعلها دعوة تحجيمية إضعافية مآلها إلى ضعف دائم غير متناه ’ إذ إن كل إقليم لا يُؤمَن أن يطالب أهل كل ناحية منه بالانفصال ولهم الدعوى نفسها التي انفصل بها إقليمهم عن محيطه الكبير , والإسلام دعوة للقوة بكل معاييرها ومن معايير القوة الاجتماع وعدم التفرق .**

 **3- وأيضا هي دعوة تقدم مصلحة الإقليم والترابط فيه على مصلحة الدين ورابطته,ونحن وإن كنا نوقن بأنه لا يمكن أن تتعارض المصلحتان في الحقيقة,إلا أنه يتصور تعارضهما ظاهرا في أذهان أصحاب هذا الاتجاه ,حيث لا يعدون الدين  معيارا لتمييز المصالح والمفاسد , وقد أمرنا الله تعالى بتقديم الدين على الوطن عندما نقع فيهما بين خيارين,قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً }النساء97كما قدم الله تعالى المحبة في الدين  والتآخي فيه على جميع العلاقات الإنسانية , قال تعالى : {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }المجادلة22.**

 **الوطنية كقيمة خلقية:**

 **تلتقي الوطنية بوصفها قيمة خلقية والوطنية بوصفها توجها سياسيا في أمر واحد لا غير,وهو توجههما إلى الوطن بمفهومه الواسع أي حيث تنتهي الحدود السياسية لا بمفهومه التراثي الضيق.**

 **أما هذه القيمة وإن اتسع نطاقها من محل الإقامة أو النشأة أو الولادة إلى كل شبر من أراضي الدولة فإنها باقية على ما كانت عليه في سماتها النفسية منذ خلق الله الإنسان.**

**ويمكن تعريفها بـ: محبة في القلب لمحل الانتماء  يظهر أثرها في مدى غيرة المرء على وطنه وحرصه على الرقي به والحفاظ على مكتسباته ومودة أهله وبغض أعدائه.**

**وهذه المحبة مركوزة في الطبائع لا يكاد ينفك عنها قلب امرئ , سوى من كان في نفسه مرض يحرف فطرته عن طبعها السوي, ونحن نعرف الأخلاق الفطرية  من أنفسنا ومن سبرنا لمن حولنا ونظرنا في تاريخ الإنسانية, فإذا وجدنا ثَمََ خلقا لا ينفك عن الإنسان أنَا وجد في الزمان والمكان علمنا أنه مما فطر الله الناس عليه ولا تبديل لخلق الله.**

 **ولسنا لإثبات فطرة من الفطر بحاجة إلى كتاب فلسفي أو نقل عن عالم ما , فما نعلمه من أنفسنا لا نحتاج إلى تعلمه من غيرنا.**

 **ومن حكمة المولى عز وجل أن غرس هذه الفطرة في النفوس,ليتحقق إعمار الكون الذي أمر الله بعمارته,فسُكنت الصحارى والقفار وأعالي الجبال وأحبها أهلها وتناسلوا فيها آلاف السنين بالقدر نفسه من الحب الذي أفاضه أهل الأودية والأنهار ومنابت الغابات على ديارهم , بل وقاتل أهل القفار وقتلوا دون ديارهم كما قاتل أهل الغابات وقتلوا.**

 **ودين الله الذي ارتضاه لخلقه لا تُعارض أحكامه ما فطرهم عليه من سجايا وأخلاق, وإلا نكون قد زعمنا في الشرع عدم الحكمة أو التكليف بما لا يطاق , وهذا كما لا يخفى من الممتنع شرعا ولله الحمد والمنة.**

**بل جاء الشرع مؤيدا للفطر ومهذبا إياها وحاميا لها بالشريعة من أن تنزلق بها الأهواء إلى مالا تحمد عقباه.**

 **فمما يُعْرف به تأييد الشرع لمحبة الأوطان : ما جعله الله تعالى من الثواب العظيم على هجرتها إليه سبحانه  عندما تتوفر شروط الهجرة وموجباتها , ولعله لم يكن للهجرة هذا الفضل لولا ما لمحبتها من التأثير في النفوس السوية , وتمسك الأحرار بأوطانهم وتحملهم في سبيلها مغبات كل شيء .
      قال تعالى : {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }النساء100وقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرينة للإسلام والحج في تكفيرها لما قبلها من الآثام , كما في صحيح مسلم ج1/ص112( أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قَبْلِهَا وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ )
    وقرن الله تعالى قتل النفس بالإخراج من الوطن في ميثاقه سبحانه على بني إسرائل : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}ا
    وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام سادة من أحبوا أوطانهم , فقد روى ابن حبان في صحيحه ج9/ص23
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ  صلى الله عليه وسلم:(  مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ)
    وكان صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة  هو وأصحابه يشتكون الشعور بالغربة حتى كان بلا ل ينشد إذا ارتفع عنه الوباء:**

 **ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة**

 **بواد وحولي إذخر وجليل
 وهل أردن يوما مياه مجنة**

 **وهل يبدون لي شامة وطفيل.**

 **فقال صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري ج2/ص667(للهم حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أو أَشَدَّ).**

**وروى أصحاب السير فيما نقله في الروض الانف ج3/ص25حديث أصيل الغفاري حين  قدم من مكة فسألته عائشة كيف تركت مكة يا أصيل فقال تركتها حين ابيضت أباطحها وأحْجَنَ  ثمامها وأغدق إذخرها وأمشرَ سلمها فاغرورقت عينا رسول الله وقال لا تشوفنا أصيل ويروى أنه قال له دع القلوب تقر.**

**ولنا أن نقيس الوطنية على القبلية,فقد جاء الإسلام إلى العرب والقبيلة هي الرابطة الأقوى بينهم , وهي الغاية المثلى التي يعيشون ويموتون من أجلها , بل كانت القبيلة هي مصدر القيم في حياة العربي , وجاء الإسلام و ألغى القبيلة كغاية ومصدر للقيم , لكنه لم يلغها كرابطة بين أهلها يستعملها في ما يحقق للمجتمع الإسلامي منافع في التكافل والنصرة وغير ذلك مما جاءت به السنة النبوية , فليكن شأننا مع الوطنية كشأن الإسلام والقبلية , فما زاد من الشعور الوطني عما قدمته سالفا في تعريف المشروع منها وهو الحب وما يثمره , أمر غير مشروع لإفضائه إلى مفاسد  لا يقرها الدين وتتنافى مع مقاصده  .

    فإذا كان هذا الحب مشروعا فليكن مشروعا ما يثمره  من الغيرة على المحبوب والحرص على الرقي به والحفاظ على مكتسباته ومودة أهله وبغض أعدائه.**

 **وتكون  المشروعية أكثر لزوما بل فرض عين حين يكون الوطن مسلما بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى , فما من رجل أو امرأة إلا وهم دائنون بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله  وما من  مدينة أو قرية  إلا وتشهد مآذنها بشهادة الحق وتسير شوارعها بقيم الدين الحنيف ويُتَرَنَم في مدارسها بآيات الذكر الحكيم قراءة وتفهما ويؤمر في أسواقها وجنباتها بالمعروف وينهى عن المنكر ويسعى بين أهلها بالأمن والعدل.**

**عندها لا نحكم على  محبة الوطن بأنها فطرة أو خلق وحسب لأنها تصير عبادة  لا يتم الإسلام  إلا بها.**

**ولا ضير من اتساع نطاق الشعور بالانتماء من القرية أو المحلة إلى ما تضمنته حدود الدولة , إذ هو كسائر المشاعر النبيلة لا يمنع الإسلام من اتساع نطاقها ,كالمحبة والكرم والعطف , مادام المحبوب والمكرم ممن أبيحت لنا محبته وإكرامه والعطف عليه .**

 **الثوابت والمتغيرات في الثقافة الوطنية وفق المحددات الشرعية :**

 **المفهوم الذي تقدم للوطنية مفهوم منسجم بشكل كبير مع الانتماء للأمة , هذا من حيث التنظير , أما في التطبيق الواقعي على المملكة العربية السعودية فإن الأمر أعمق من التنظير إذ الانتماء الوطني لا ينفك عن الانتماء للأمة أبداً , بل يمكن القول إن أي محاولة للفصل بينهما هي محاولة للقضاء على الوطن بهيئته الحاضرة والإلقاء به في غياهب المجهول.**

 **والانتماء للأمة الإسلامية لا يقتصر على الانتساب إليها كمجموعات بشرية تعتنق ديناً واحداً , بل الانتماء إلى هذا الدين الذي هو كما قدمنا في الحديث عن مفهوم الثقافة مكون رئيس من مكوناتها.**

 **ولهذا فإننا حين نتحدث عن المحددات الشرعية للثوابت والمتغيرات في الثقافة الوطنية لن نبتعد قيد أنملة عن الثقافة الإسلامية , وحديثا عن هذه هو حديثنا عن تلك فهما شئٌ واحد لا يُمكن فصله.**

 **وحين نتفق على أن حجم الرسالة التي تريد ثقافة ما تقديمها للكون هي المعيار الذي يحدد حجم الثابت والمتغير فيها , يمكننا تحديد الثوابت والمتغيرات في الثقافة الإسلامية من خلال تحديد رسالتها الكونية .**

 **فالإسلام يُريد تعبيد الإنسان لله تعالى اختياراً كما هو عبد له اضطراراً , كما قال تعالى:(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت )النحل 26.**

 **وتعبيد الإنسان لله تعالى لا يكون إلا وفق رسالة الإسلام التي جاء بها المصطفى صلى الله عليه وسلم للبشرية كافة (إن الدين عند الله الإسلام)19آل عمران , (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين )آل عمران 85.**

 **ورسالة الإسلام لا يمكن أن تتحقق إلا باتباع ما أنزل الله على نبيه (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)ألبقرة 170(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكَّرون) الأعراف 3**

 **ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المجسد للاتباع الحق لما أنزل الله لذلك فاتباع الناس لدين الله لا يكون إلا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رَحِيم)31آل عمران .**

 **(واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) الزمر55**

 **وتعبيد الإنسان لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً هدفٌ أسمى لدين الإسلام تدخُل ضمنه جميعُ الأهدافِ التفصيلية لقيامِ الإسلامِ في الأرض من عمارةٍ للكون بما يصلٍحُه وتحقيقٍ للعدل والمساواة وإشاعة للأمن والسلام .**

 **لهذا يُمكننا أن نقرر ضابطاً للثابت في الثقافة الإسلامية وهو تلك العناصر التي يؤثر تغييرها سلباً على الهدف الأسمى للإسلام وهو تعبيد الإنسان لله اختياراً كما هو عبد له اضطراراً , وما يتفرع عن ذلك الهدف الأسمى من أهداف .**

 **كما يُمكننا ضبط المتغير أيضا , بأنه ما يؤثر تغيره إيجابا على هذا الهدف الأسمى والأهداف المتفرعة عنه .**

 **تحديد الثوابت والمتغيرات :**

 **حين نصل إلى اتفاق حول ضابط الثبات والتغير في ثقافتنا الإسلامية , وهو بالتالي الثابت والمتغير في ثقافتنا الوطنية,فإن مسألة تحديد الثابت والمتغير تكون من السهولة بمكان بحيث يستطيعها آحاد الناس المؤمنين بهذا الدين فضلاً عن سواهم , فإن العناصر التي يُؤَثِّرُ تغييرُها على رسالة الإسلام الكونية يمكن أن نقول إن لها أُمهات ثلاث , يُشتق منهن أو قل يرجع إليهن ثوابت أخر تعتبر كالفروع المنجدلة عنهن .**

 **وهذه الأمهات هي :**

 **أولا أصول العقيدة الإسلامية الثابتة بالدليل القطعي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم , فإن المساس بهذه الأصول لا يؤثر على رسالة الإسلام الحقيقية بل يغير فيها تغييراً جذرياً.**

 **ثانيا: مصادر التشريع الإسلامي من كتاب وسنة , والإيمان اليقيني بكل ما جاء فيهما وعدم العبث به بالتأويل الفاسد المبني على غير القواعد المقررة في فهم النصوص الشرعية من قبل علماء أصول الفقه ,وكذلك مصدرية سائر الأدلة التي شرحها علماء أصول الفقه في مدوناتهم والتي يبنى الاستدلال بها على أدلة من الكتاب والسنة .**

 **ثالثاً: الجماعة , فهي من أعظم الثوابت في الثقافة الإسلامية , لأن مقاصد الشريعة ورسالة الإسلام لا تتم إلا مع وجودها , وهي من القواعد الثابتة بالنص عليها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .**

 **فمن القرآن قوله عز وجل :(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ) آل عمران103**

 **والجماعة تشمل الوحدة السياسية وكل ما يُخل بها من تنازع في السلطان وتنازع في الرأي (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلواوتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين )** الأنفال: ٤٦

 **الثوابت المتفرعة عن تلك الأمهات:**

 **وهي كثيرة على اعتبار أن كل واحدة من هذه الثلاث تنطوي تحتها تفريعات عديدة تضمنتها مصنفات العلماء .**

 **فأصول العقيدة الثابتة بالدليل القطعي يدخل تحتها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره , ووجوب الاعتصام بالدين الذي هو حبل الله تعالى المتين ونبذ الابتداع أو التغيير فيه , وعِظم منزلة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اىلثابتة بصريح القرآن الكريم في عدد من آياته ومنها قوله تعالى: ( والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)** التوبة: ١٠٠

 **ومنهم آل بيته الكرام الذين اجتمع لهم إلى شرف الصحبة فضل القرابة ومنهم نساؤه صلى الله عليه وسلم وبناته وبنوهن وومن أسلم من أعمامه وبنيهم .**

 **ويتفرع عن مصدرية الكتاب والسنة ما مضى ذكره في أصول العقيدة وكذلك فرائض الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأسرة وما يتعلق بها من واجبات وما يتوجب لها من حقوق .**

 **والحكم بما أنزل الله تعالى في الحدود والحقوق والعقود ومعاملة المُخالفين من أهل القبلة وغيرهم , ومنه إرجاع جميع ما يضعه البشر في حياتهم من تنظيمات إلى حاكميتها فما وافقها أجري وما خالفها قُطِع ومُنِع**

 **ومما ينطوي تحت الجماعة نبذ الفرقة وكلِ ما يؤدي إليها من قول وعمل , سواء أكان هذا القول والعمل المؤدي للفرقة صادراً من الحاكم أم صادراً من المحكوم , إذ يلزم الحاكمَ أن يتحرى أسباب تأليف رعيته وسكينتهم من العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فعليهما تتآلف القلوب ,وتوليةُ الأكفاء الذين يقومون بما ولاهم الله تعالى بالقوة والأمانة , ونشر العلوم النافعة ودرء ما يتحقق ضرره من المعارف والأفكار , التي لا تتوافق مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .**

 **أما المحكوم فمنه النصيحة لمن ولاهم الله أمره لأن بالنصيحة يستقيم الأمر وباستقامته تُحقظ الجماعة ثم السمع والطاعة في غير معصية , والتعاون على البر والتقوى والانزجار عن التعاون على الإثم والعدوان ومعصية الرسول**

 **وغير ذلك مما يُمكن إضافته مما هو في حقيقته راجع لهذه الأمهات الثلاث .**

 **وكل ما تم سرده من أمثلة على الثوابت يتحقق فيها الضابط الذي قدمناه للثوابت , فما منها أصل أو فرع إلا وهو إذا تخلف حصل الضرر على رسالة الأمة وهي تعبيد الناس لله اختياراً كما هم عبيد له سبحانه اضطراراً , ولو وقفنا مع كل مثال منها ونظرنا إلى ما يحدثه تخلفه من تخلف لقيام الأمة برسالتها لتحققنا صحة الضابط الذي أشرنا إليه .**

 **المتغيرات :**

 **أما المتغيرات : فإن الحديث عنها يُعَدُّ أخطر بكثير من الحديث عن الثوابت , وذلك لأن التوسع فيها على حساب الثوابت هو المشكلة التي تواجه المعنيين بهذا الأمر , لكن انضباطها بأنها ما يؤثر تغييره إيجابا على رسالة الأمة يقلل من هذه المشكلة كثيراً .**

 **شرط التغيير :**

 **حتى يكون التغيير مؤدياً إلى تأثير إيجابي على رسالة الأمة لابد أن تجتمع له شروط**

 **أولها :أن يكون نتاج حاجة حقيقية تنبعث من داخلها لتحقيق تفاعل صحيح بين الأمة أفرادا وجماعات وبين الدين والبيئة واللغة والتاريخ ومقدرات الأرض , لأن التغيير إن كان نتاج حاجة موهومة أو مدفوعاً إليها من اخارج نطاق الأمة فسوف يكون التغيير سلبياً في أي مجال من المجالات التي يُتاح فيها التغيير.**

 **وسبب سلبيته أنه ناتج عن غير تفاعل حقيقي من إنسان الأمة ومصادر قيمه , أو ربما تفاعل ه مع شئ من القيم الدخيلة وهذا ما سوف يؤدي إلى تناقض بين المُنْتَج الجديد الناشئ عن هذا التفاعل الخاطئ وبين سياق ثقافة الأمة , وسياق ثقافة الأمة الأصيل سوف يؤدي إلى معركة طبيعية لرفضه قد تطول مُدَّتُها وقد تقصر , لكن كثرة الوارد الثقافي الناتج عن عملية التفاعل غير الصحيحة سوف يؤدي إلى ضعف الأمة حضارياً لأن جسد الأمة الثقافي سيكون منشغلاً بتلقائية بدفع التناقضات مما يجعله عاجزاً عن استثمار ثقافته أو نشرها في العالم .**

 **ولنا في تاريخنا الإسلامي رصيد واضح في إثبات صحة ما ذهبت إليه , فإن أعظم عجز سجلته الأمة في تاريخها عن نشر رسالتها كان في تلك الأزمنة التي كثر فيها الوافد الثقافي الناشئ في محاضن ثقافية مغايرة .**

 **وكل عصر حققت فيه الأمة رسالتها كاملة أو قدراً من رسالتها تجده في تلك العصور التي استطاعت فيها التغلب على الوارد الثقافي المغاير .**

 **الثاني من شروط المتغيرات: امتناع وصوله إلى مخالفة لثوابت الأمة الكلية أو الفرعية , وهذا في تقديري أمر مفروغ منه .**

 **الثالث : أن لا يكون أمراً يختلف العلماء فيه وفق دليل معتبر لدى كل فريق , وذلك لأن أمور الخلاف الفقهية لا تندرج تحت باب الثوابت والمتغيرات أصلاً , لأنها ثابتة لدى من استقام لهم الاستدلال عليها , وليست كذلك عند من لم يستقم لهم الاستدلال عليها , وسر ثبوتها أو عدمه هو الدليل .**

 **لكن هذه الخلافيات إذا استقر أحدها في مجتمع وغلب على صورته فلا ينبغي الاستهانة باستكانة المجتمع له وتعارفهم عليه ووإبائهم إدراجه في خانة المتغيرات , لأن الاستهانة بمسلمات المجتنعات أو تعُدُّها المجتمعات في خانة المُسَلَّمَات يؤدي بالأمة إلى الاحتقان الذي يولده الخوف من التغيير القسري , وهذا الخوف حق للأمة إذ هو الطبيعة البشرية الجمعية التي ركزها المولى سبحانه وتعالى في تكوينها لتدافع عن بقائها .**

 **أمهات المتغيرات :**

 **وعلى ذلك يمكن القول بأن أمهات المتغيرات هي :**

 **أولاً : العوائد والأعراف, وهي ما يصطلح عليه الناس من تلقاء أنفسهم للتعامل الاجتماعي فيما بينهم أو مع بيئتهم ومحيطهم , ويُلْحَق بها الأنظمة , وهي :ما يصطلح عليه الناس مما يُفرَض عليهم من المؤسسات الرسمية لضبط التعامل معها وتيسير حياة الناس فيما للمؤسسات أثرٌ فيه .**

 **وكثيراً ما ينتج عن هذا الأصل إشكال وهو اختلاطه بالشرعيات التي هي من الثوابت وذلك نتيجة طول الأمد بمثل هذه العوائد أو التنظيمات , والمرجع في الفصل فيما يحدث من إشكالات في هذا الأمر هم علماء الشريعة لا غير .**

 **لأنهم القادرون دون غيرهم إعطاء الكلمة الفصل فيما مُستنده العرف وحسب وما كان عُرفاً مبنياً على أدلة الشرع . وذلك لما يمتلكونه من أدوات في فهم نصوص الكتاب والسنة والأدلة المستفادة منها ما ليس عند غيرهم .**

 **ثانيا : الفتوى في غير القطعيات: تعد الفتوى فيما لم يثبت الحكم فيه بدليل قطعي الدلالة من جملة المتغيرات , لكن التَّغَيُّر في هذا النوع يأتي من قِبَلِ المُجتهد , وذلك إما بتغير نظرته للدليل المثبت للفتوى الأولى , أو لعلمه بدليل جديد أقوى في الدلالة على المراد , أو لتغير الظرف المحيط بالواقعة المُفتَى فيها بحيث تصبح خارجة عن مُتَنَاوَلِ الدليل , لكن هذا التَّغَيُّر لا يحدث نتيجة هوى المفتي أو انصياعه إلى هوى الناس , لأن ذلك سوف يؤثر سلباً على رسالة الأمة كلياً أو جزئياً .**

 **ثالثاً : الرؤى والتصورات للكون والحياة , فيما لم يرد دليل شرعي بالنص عليه .**

 **يُمكن القول أيضا أن هذه الثلاث هي أمهات المتغيرات , ويمكن أن يندرج تحتها كثير من المفردات لكن الغالب أنه لا يندرج تحتها كثير من الأجناس كما هو الحال في الثوابت .**

 **ولكن ألا يوجد في المحددات الشرعية للثوابت والمتغيرات ما تختص به ثقافتنا الوطنية أو لنقل ما يختص به هذا الوطن عن سائر الأوطان الإسلامية ؟**

 **الجواب : بلى وهو ما أتحدث عنه في:**

 **المحددات التاريخية للثوابت والمتغيرات في الثقافة الوطنية :**

 **توطئة:**

 **تلك الصدفات أو كسرات الأحجار الكريمة تظل غير قابلة للاجتماع أو الانتظام أو الترادف فأشكالها الهندسية وصغر أحجامها تقف مانعا أمام أي نوع من أنواع التآلف أو الانتظام , وحين تثقبها يد الصانع الخبير وتسلكها جميعا في خيط يجتمع رأساه في صدفة كبيرة يظهر جمال هذه القطع منتظمة في هذا الخيط الرفيع وتعظم مكانتها فتتزين بها الأيدي والنحور وتعبن العُبَّاد على ذكر الله سبحانه وتعالى .**

 **كان شعب الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر وما قبله يشبه كثيرا تلك الخرزات في تناثرها وعدم وجود ما يجمعها ناهيك عمّا بين أهل أهلها حاضرة وبادية من تناحر وتنازع , وكانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي أظهرها الله تعالى في أواسط القرن الثاني عشر بمثابة ذلك الخيط الذي كانت الجزيرة العربية تحتاج إليه لينتظم حواضرها وقبائلها في سلك واحد ويلائم بين مكوناتها الجغرافية والاجتماعية.
 فقد كانت العقيدة الإسلامية كما جاء بها نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام هي خلاصة دعوته رحمه الله , ويسر هذه العقيدة ومناسبتها لحاجات الروح جعل لهذه الدعوة ألقا وقبولا في الأنفس تغلب على أهوائها ومطامحها مما جعل الجزيرة كلها تختارها وتنبذ من أجلها كل ما يتنافى معها من عادات جاهلية وقيم منحرفة عن نهج الدين القويم .

 وكان من حسن طالع أسرة آل سعود ومن سعودها الدنيوي والأخروي إن شاء الله أن كانت دولتها هي عَلَمُ هذه الدعوة ورايتها والقائمة بها , فصار لهذه الإمارة الصغيرة من القبول والإذعان ما لم يكن مُتَصَوراً لولا قيامها بهذه الدعوة وإقدامها على تحمل عبء نشرها, فبلغت في زمن يسير من قيامها مالم تبلغه مملكة في هذه الجزيرة على مر التاريخ خلا دولة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم.**

 **ولعله لولا تمسك هذه الدولة بدعوة التوحيد وفقه السلف لما تجاوزت يوما من الأيام قرية الدرعية التي التي تأسست فيها إمارتها مطلع القرن التاسع الهجري , وعلى عكس ذلك حين تمسكت بهذه الدعوة كانت لديها الفرصة لولا مارافق قيامها من ظروفٍ دوليةٍ وتكالبٍ عليها أن تعيد العالم الإسلامي إلى ما كان عليه من الوحدة السياسية في العصر العابسي الأول.**

 **وحين قام الملك عبدالعزيز رحمه الله تعالى بمشروع إعادة تكوين الدولة في عهدها الثالث استطاع بفضل حمله لواء هذه الدعوة أن يتم توحيد معظم أجزاء الجزيرة العربية ولمَّا يتجاوز سنه الثالثة والأربعين عاماً.**

 **إذاً فهناك حقيقة لا يمكن تجاوزها عند النظر إلى واقعنا السياسي والاجتماعي في المملكة العربية السعودية , وهي التلازم الذي لا يمكن فكه أو الانفكاك منه بين الدولة والدعوة , وهذه المُسَلَّمةُ وجدتُها من خلال متابعاتي الكثيرة مُدركة بشكل لا لبس فيه لدى أعمدة الأسرة المالكة فالكل منهم يتحدث في مجالسه الخاصة ولقاءاته العامة بما يفيد أن الشريعة والمنهج السلفي في تلقي النصوص هما الخيار الوحيد للدولة في حاضرها ومستقبلها.
 هي خيار الدولة الوحيد لأنها الدين القويم الذي لا يرضى الله تعالى إلا به يحقق إخلاص التوحيد لله تعالى في العبادة والدعاء , ويحقق ‘خلاص الاتباع بتقديم النص على كل اعتبار آخر واعتبار منهج الصحابة رضي الله عنهم في تلقي النصوص وفهمها وطرح ما سواه من مناهج مبتدعة تذهب بالدين بعيدا عمَّا أحكمه الله من أجله , وهو الطريق الذي أثبتت الوقائع المتلاحقة غُربته بين عشرات الدعاوى التي انساق الناس إليها وراء الأهواء فطوبى للغرباء.

 وهي خيار الدولة الوحيد لأنها مبتغى الأمة وأساس مطالبها ومعشوقها الذي تتنازل عن كل شيء من أجله ولا تتنازل عنه من أجل أي شيء.**

 **هذه التوطئة مع انطوائها على الكثير من المعلوم سعودياً بالضرورة , إلا أنها مدخل مهم لسرد الثوابت والمتغيرات في الثقافة الوطنية وفق محدداتها التاريخية.**

 **وهذه الثوابت وفق محدداتها التاريخية لا تخرج عن الضابط الذي أثبتناه أولاً , وهو أن ما يؤثر تغيره سلباً على رسالة الأمة فهو ثابت , وما يؤثر تغيره إيجاباً على رسالة الأمة فهو متغير .**

 **لهذا لا بد لنا أن نسأل أنفسنا قبل الحديث عن الثوابت والمتغيرات , ما هي رسالة وطننا؟**

 **رسالة الوطن:**

 **جاء في ديباجة النظام الأساسي للحكم تحت عنوان :مبادئ الدولة , ما نصه :(تمثل الدعوة الإصلاحية التي قامت على أساسها الدولة السعودية الركيزة التي اعتمد عليها الحكم فيها ، و تقوم تلك الدعوة على أساس إقامة شرائع الإسلام و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر وتطبيق مبـادئ الشريعـة الإسلاميـة ، وإصلاح العقيدة و تنقيتها من البدع و هي بذلك تستمد مبادئها من المبادئ الإسلامية الصحيحة التي كانت سائدة في صدر الإسلام ).**

 **والحق أن هذه هي رسالة الوطن التي عليها نشأ وبها صرح مؤسسه في العديد من المناسبات .**

 **وقد كفانا النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية مؤنة إطالة التفكير في تحديد الثوابت الوطنية وفق المحددات التاريخية ,**

 **ويمكن هنا ملاحظة أمرين قبل المضي في استشفاف الثوابت من هذا النظام :**

 **أولهما : الاقتراب الكبير بين المحددات الشرعية والمحددات التاريخية في تحديد الثوابت أو المتغيرات الوطنية .**

 **الآخر : أن النظام الأساسي للحكم في المملكة ليس بمثابة وثيقة دستورية للدولة وحسب , بل هو وثيقة دستورية للمواطنين أيضا , فالكثير من فقرات هذا النظام لايمكن القول إنها تعاليم نظامية للدولة وحسب , بل هي تعاليم دينية واجتماعية للمواطنين أيضا.**

 **والسبب في ذلك هو استمداد سائر بنود هذه الوثيقة من الكتاب والسنة وهما منهج حياة فمن غير المستغرب أن يكون النظام المستمد منهما منهجاً حياتياً أيضا , بل إن المادة السابعة من هذه الوثيقة لا تكتفي بمصدريتهما , بل تؤكد على كونهما حاكمان على هذا النظام وسائر أنظمة الدولة .**

 **ولنبدأ بسرد الثوابت مستشرفين في ذلك بنود النظام الأساسي للحكم .**

 **أولاً: الإسلام الصحيح كما كان سائداً في صدر الإسلام الأول هو رسالة الدولة , وسيادة مبادئه وتكاليفه في أرجاء الوطن هي مهمتها الأولى , والحفاظ عليه والدعوة إليه في سائر أنحاء العالم ونشر العدل والشورى والمساواه وفق تعاليمه بعض مهماتها , وقد نص على كل ذلك النظام الأساسي للحكم في الفقرات 1و6و7و8.**

 **ثانيا: المملكة العربية السعودية دولة دينية , بمعنى أنها تقوم على أُسُسِ دين الإسلام وتحكم به وتسوس به الدنيا , وقد تبين في المطلب السابق كيف أن الكتاب والسنة ليسا مصدرين للأحكام أو القضاء في النظام السعودي وحسب بل هما الحاكمان عليه والمهيمنان على جميع التنظيمات فيه .**

**وقد فهم البعض أن وصف الدولة بكونها دينية يعني بالضرورة أن تكون ثيوقراطية , والحقيقة أن هذا الفهم- الدولة الدينية تساوي الثيوقراطية - مرتبط بالتاريخ السياسي الأوربي الذي يعطي الحاكم حقاً إلهياً يجعله هو مصدر الحق وبالتالي هو مصدر الحكم والسلطات , وهذا المفهوم ينبغي أن لا يسيطر على أذهان المسلمين بحيث ينفون نسبة الدولة التي يطمحون إليها إلى الدين , ويختارون النسبة إلى المدنية بدلا عن ذلك , لأن الدولة الدينية في الإسلام هي التي تسوس الدنيا بالدين وتحرس الدنيا بالدين , وهو مفهوم لا يتحقق مع نسبة الدولة إلى المدنية .**

 **كما أن الدعوة إلى دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية لا يحقق الطموح الشعبي الإسلامي في الدولة التي تطبق الشريعة الإسلامية .**

 **لأن مرجعية الشريعة ليست كافية لضمان هيمنة الكتاب والسنة على جميع مفاصل النظام في الدولة , بل لابد من تقرير هيمنة الشريعة على النظام كما تقرر في المواد الأُوَل من نظام الحكم في المملكة العربية السعودية , فلا بد أن تكون جميع المواد التي تصف الدولة أو مؤسساتها وكذلك جميع المصطلحات الواردة في أنظمتها ذات صفة شرعية .**

 **وذلك لأن الدولة التي تُحَكِّمُ الشريعةَ الإسلامية بمجموعها عبارة عن مؤسسة دينية ابتداء من رأس الهرم حتى قاعدتها الاجتماعية , وحين تكون الدولة مدنية بمرجعية إسلامية – كما ينادي البعض – فإنها لن تكتسب هذه الصفة .**

 **وعليه فلا ينبغي لنا أن نتحرج أبداً من وصف الدولة التي تحكم بالشريعة الإسلامية بأنها دينية , لأن الغاية منها :سياسة الدنيا بالدين , وهذا المطلب لن تحققه أي دولة لا تهيمن الشريعة على جميع أنظمتها , سواء أكانت متعلقة بالسلطات الثلاث القضائية والتنظيمية والتنفيذية ,أم المتعلقة بإدارة الدولة وتصريف شؤون المجتمع .**

 **وحين نستقرئ النظام الأساسي للحكم نجد أنه قد راعى هذا الأمر ومكَّن الشريعة الإسلامية من كل شيء في البلاد نظاماً ومجتمعاً وقيادة ,وسوف أعرض فيما يلي جميع المواد التي نصت على هذا التمكين ليَثبُت للقارئ الكريم دينية الدولة من خلال تمكنها من جميع مفاصل النظام .**

 **فإضافةً إلى ما سبقت الإشارة إليه في المادة الأولى والخامسة والسابعة والثامنة من اعتبار الكتاب والسنة دستوراً للدولة وحاكميتهما على جميع أنظمتها فإن المادة الأولى من النظام أيضا تبدأ في بيان الانتماء الديني للدولة (المملكة العربية السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة تامة، دينها الإسلام)**

 **ثالثا :العربية هي لغة البيت والشارع والثقافة والعلم والاقتصاد والسياسة,والانتماء لها ليس انتماء آيديولوجياً , لأن الانتماء الآيديولوجي للعروبة يتعارض مع النسبة إلى الإسلام بكلمة (إسلامية)كما يتعارض مع بقية المواد التي تنص على أن دستور الدولة هما الكتاب والسنة وعلى حاكميتهما على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة , فإن الله تعالى يقول في كتابه : (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ)19آل عمران , وقوله تعالى : {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85وقوله : {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }آل عمران103فهذه الآيات وغيرها تمنع أي أي انتماء آيديولوجي لغير دين الإسلام .**

 **وهذا الانتماء المعرفي مفسرٌ في المادة الأولى نفسها , حيث جاء في المادة :( ودستورها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولغتها هي اللغة العربية).**

**وهذا الانتماء المعرفي للعربية فرع عن الانتماء لكتاب الله تعالى الذي وصفه الله تعالى بالعربية في غير موضع من كتابه عز وجل ومن ذلك : {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف2 {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ }الرعد37**

 **وتكثر الإشارة إلى مظاهر الارتباط الوثيق بشريعة الإسلام في النظام الأساسي للحكم ليؤكد عدم انحصار الشريعة في مجال القضاء والتنظيم وشمولها سائر جوانب الحياة .**

 **فمن ذلك أن المادة الثانية تحدد أعياد الدولة الرسمية بأنهما عيدا الأضحى وعيد الفطر , وهذا التحديد التزام بمصدرية الكتاب والسنة لهذا النظام حيث تُحَدِّد السنة أعياد المسلمين بما جاء عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ قَالُوا كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ . " سنن أبي داود 1134**

 **كما تحدد التقويم بأنه التقويمُ الهجري , وهو تحديدٌ فيه تمييزٌ للدولة واعتزازٌ بأنتمائها للتاريخ الإسلامي المجيد ,الذي تُؤَرَّخُ جميعُ وقائعه بالتاريخ الهجري المرتبط بالحدث الذي يُعتبر من الناحية السياسية أول إعلان لنشوء الدولة الإسلامية .**

 **رابعاً : لم تجتمع كلمة هذه الأرجاء من الأرض وتأمن سابلتها ويكثر عمرانها بعد عصر صدر الإسلام إلا في هذه الدولة المباركة بمراحلها الثلاث , ولم يجتمع أهل هذه الجزيرة إلا عليهم فإقرار الملك فيهم بعون الله أحد الثوابت إن شاء الله وهي نعمة من الله تعالى عليهم لن ينزعها سبحانه إلا أن جروا هم في نزعها وذلك بالتفريط في أسباب النعمة وهي نصرة الإسلام والقيام بحقه .**

 **وبما أن المادة الخامسة تبين أن نظام الحكم في المملكة ملكي وراثي فإن المادة الثامنة تنص على التالي : (يقوم الحكم في المملكة العربية السعودية على أساس العدل والشورى والمساواة وفق الشريعة الإسلامية).**

 **وهذه المادة تنفي صفة الاستبدادية والقهرية عن هذا الحكم الملكي , فهو إن شاء الله تعالى من أصناف الملك الموصوف في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحمة, فيما رواه الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أول هذا الأمر نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة ثم يكون ملكا ورحمة ثم يكون إمارة ورحمة ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر فعليكم بالجهاد وإن أفضل جهادكم الرباط وإن أفضل رباطكم عسقلان(المعجم الكبير (11/88/11138)**

 **ولما كان العدل والمساواة مصطلحان تتنازعهما الكثير من المفاهيم فقد حددت المادة المفهوم الذي تنطلق منه الدولة في إقامة العدل وهو مفهوم الشريعة الإسلامية.**

 **خامساً : يلتفت النظام إلى المجتمع ليؤكد شمول الشريعة الإسلامية فيفرد خمس مواد لبيان مقومات المجتمع السعودي ابتداء من المادة 9 وحتى 13وهذه المواد تؤكد بمنطوقها أن سياسة الدولة للمجتمع ورعايتها له إنما هي من منظور شرعي حيث يضع النظام من مسؤوليات الدولة حماية البناء الاجتماعي الموافق للشريعة الإسلامية والانتماء الديني للمواطن السعودي .**

 **فمطلع المادة 9: (الأسرة هي نواة المجتمع السعودي)وهذا يعني أنه لا يمكن اعتماد أي أنظمة أو الدخول في اتفاقيات أو معاهدات دولية تسمح ببناء اجتماعي يقوم على غير الأسرة , وهو البناء الفِطرِي للإنسانية منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }الحجرات13**

 **والجزء الثاني من المادة التاسعة (ويربى أفرادها –أي الأسرة -على أساس العقيدة الإسلامية)فالتربية في النظام الأساسي ليست مسؤولية الأسرة وحدها بل هي أيضا مسؤولية الدولة , ومن واجب الدولة أن تحول بين أفراد المجتمع وبين أي عمل تربوي ينافي العقيدة الإسلامية , أو يؤدي إلى الإخلال بالتربية على أساس من العقيدة الإسلامية , وهذا المعنى تؤكده المادة العاشرة التي نص صدرها (تحرص الدولة على توثيق أواصر الأسرة والحفاظ على قيمها العربية والإسلامية )وهو نص يؤكد الرعاية التربوية على منهج إسلامي للأسرة من جهة الدولة .**

 **أما المادة 11فإنها تتولى وصف المجتمع السعودي (يقوم المجتمع السعودي على أساس من اعتصام أفراده بحبل الله وتعاونهم على البر والتقوى والتكافل فيما بينهم وعدم تفرقهم)وهي مادة مستمدة حرفياً من قوله تعالى : {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ }آل عمران 103 {وتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }المائدة2**

 **سادساً : المادة 13تنص على أهداف التعليم في المملكة العربية السعودية فتجعل العقيدة هي الغاية الأولى من غايات التعليم ثم المعرفة والمهارات والمحبة والنفع للمجتمع : (يهدف التعليم إلى غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء وإكسابهم المعارف والمهارات وتهيئتهم ليكونوا أعضاء نافعين في بناء مجتمعهم محبين لوطنهم معتزين بتاريخه).**

 **سابعاً :يخصص النظام تسع مواد للمبادئ الاقتصادية تبتدئ بالمادة 14 وتنتهي بالمادة 22وفي جميع هذه المواد نجد أن الشريعة الإسلامية حاضرة إما بالنص عليها كما في المادة 17والتي تبين أن الملكية والعمل ورأس المال مقومات أساسية للاقتصاد والمجتمع في المملكة وفق الشريعة الإسلامية, والمادة 21والتي تنص على جباية الزكاة وصرفها في مصارفها الشرعية , أو ضمنا كما في بقية المواد السبع الأخرى والتي بُنِيَت على أساس شرعي حيث إن جميعها تقترب أن تكون نصوصاً فقهية محكمة , حاصلها ملكية الدولة لثروات باطن الأرض وظاهرها وحماية المال العام وكفالة الملكية الخاصة , وحظر المصادرة العامة والضرائب .**

 **سابعاً : يخصص النظام عشرين مادة للحقوق والواجبات , وتعني واجبات الدولة وحقوقها وواجبات المواطنين وحقوقهم وتبدأ من المادة 23وتنتهي بالمادة 43وجميع هذه المواد تبني الحقوق والواجبات على أساس الشريعة الإسلامية .**

 **فالمادة 23 تنص على أعظم واجبات الدولة فتقول : (تحمي الدولة عقيدة الإسلام، وتطبق شريعته وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم بواجب الدعوة إلى الله)**

 **فحماية العقيد الإسلامية هي أعظم واجبات الدولة المسلمة التي تجعل الشريعة الإسلامية دستورها , تأسياً بدولة الرسالة اودولة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم , وتطبيق الشريعة هو امتثال أمر الله تعالى بإقامة الدين : {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13.**

 **كما تبين المادة 34 أن الدفاع عن العقيدة والوطن واجب كل مواطن , وهو امتثال لقوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }المائدة35وسواها من الآيات الكريمات التي تأمر المسلمين بالجهاد .**

 **أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو واجب على المسلمين جميعاً لكنه أوجب على من مكنه الله تعالى في الأرض قال سبحانه : {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }الحج41**

 **وكذلك الدعوة إلى الله هي من واجبات القادة من أتباع الني محمد صلى الله عليه وسلم : {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }يوسف108**

 **وفي المادة 26 يجعل النظام من واجبات الدولة حماية حقوق الإنسان ولكنه يقيد هذه الحماية وهذه الحقوق بكونها وفق الشريعة الإسلامية فما جعلته الشريعة حقاً للإنسان فإن الدولة مسؤولة عن حمايته وما ليس كذلك فلا يدخل تحت مسؤوليات الدولة.**

 **ثامنا: وتبين المادة 45 أن مصدر الإفتاء في المملكة العربية السعودية هو الكتاب والسنة , ولا تشير أي من المواد إلى مذهب معين من المذاهب الفقهية الأربعة .**

 **تاسعا : أما المادة 46 فنصها : (القضاء سلطة مستقلة، ولا سلطان على القضاة في قضائهم لغير سلطان الشريعة الإسلامية)ويبدو جليا من هذه المادة مع ما تقدمها من مواد وما يتلوها أن القضاء ليس إلا جانبا من جوانب تطبيق الشريعة الإسلامية وليس كل جوانب تطبيقها .**

 **عاشراً : الشراكة بين المواطن والدولة في تحمل المسؤوليات تبين عدد من مواد النظام العلاقة بين المواطن والدولة وهي علاقة مسؤولية مشتركة , إلا أن جانب الدولة في تحمل هذه المسؤولية أكبر بكثير , فهي تتحمل مسؤولية التعليم والأمن والسياسة الداخلية والخارجية وتجعل المواطن شريكا في مسؤوليات أخر , وتبدأ مسؤولية المواطن عملياً من بيعة المواطنين التي تنص عليها المادة السادسة من النظام , تقول المادة : (يبايع المواطنون الملك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله وعلى السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره)ويلاحظ تضمن المادة لجزء من نص بيعة المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في حديث عبادة بن الصامت رضي اللهى عنه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسرِ ، والمنشط والمكره، وعلى أثره علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهلهُ إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لؤمة لائم" متفق عليه**

 **وتبين المادة التاسعة والعاشرة شراكة الدولة بل مسؤوليتها عن تربية النشء على القيام بمسؤولياتهم تجاه الدين والدولة والمجتمع والأسرة .**

 **كما تبين المادة 13 مسؤولية الدولة عن تعليم أفراد المجتمع وتهيئتهم ليكونوا نافعين لمجتمعهم محبين لوطنهم معتزين بتاريخه .**

 **وكما أن عددا من مواد النظام تؤكد على مسؤولية الدولة عن حماية المال الخاص والعام , إلا أن المادة 16 تجعل المواطن شريكا في وجوب حماية المال العام (للأموال العامة حرمتها وعلى الدولة حمايتها وعلى المواطنين والمقيمين المحافظة عليها)**

 **تمنع المادة 20 من فرض الضرائب على المواطنين إلا عند الحاجة , وهنا يجعل النظام الدولة هي المسؤول الوحيد عن أعباء الدولة المالية في جميع الأحوال , إلا عند الحاجة ,وهذه العبارة تجعل مسؤولية المواطن عن الإنفاق العام في الدولة معلقة بعجز الدولة عن الوفاء بالتزاماتها .**

 **يجعل النظام المواطن شريكاً مهما في مسؤولية التكافل الاجتماعي , فالدولة تجبي الزكاة من المواطن وتصرفها في مصارفها , مادة 25, وكما أن النظام يجعل الدولة تكفل حق المواطن وأسرته في حالة الطواريء والمرض والعجز والشيخوخة, فهو يجعل المواطن شريكاً في الضمان الاجتماعي فهي داعمة له وتشجع المؤسسات والأفراد على الإسهام في الأعمال الخيرية كما في المادة**

 **هذا والحمد لله أولا وآخراً وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه وسلم تسليماً كثيرا**

**محمد بن إبراهيم بن حسن السعيدي**

**(1)الممانعة المجتمعية , تأليف د محمد بن إبراهيم السعيدي , مركز الفكر المعاصر , الطبعة الأولى 1432هـ الرياض .**

**(2) ومن هؤلاء القليل الطائفة الآرذوكسية فإنها مازالت تقاوم في سبيل المحافظة على الكثير من معالم هيثتها القديمة , حتى في داخل الكيان الصهيوني .**

 **(3)المسألة اليهودية , كارل ماركس , ترجمة نايلة الصالحي , منشورات الجمل .**

**(4)هناك فتوى من بعض حاخامات اليهود تبيح للنساء ممارسة الجنس المحرم مع الأعداء في سبيل الحصول على معلومة تفيد إسرائيل , وقد صرحت وزيرة الخارجية الإسرائيلية ليفلي أنها كانت تفعل ذلك .**

**(5)نعاية التاريخ وختام البشر , فرانسس فوكوياما, ترجمة : حسين أحمد أمين , مركز الأهرام الطبعة الأولى 1413هـ**